الثمانون فى المائة

« لئن أمر الباطل لقديماً
فعل . ولئن قلّ الحق فلربما
ولعل . » (الامام على)

هى رسالة تاريخية استقرائية فى دحض مفتريات الانكليز
فى رمى الامة المصرية بالجهل تبريراً لدعواهم
بأن مصر ، معلمة الشعوب ، غير جديرة بالاستقلال والحرية

بقلم
احمد أبى الخضر منسى

مطبعة الاعتماد بشارع حسن الاكبر بمصر
١٨ اكتوبر سنة ١٩٢١

اهداء الرسالة

الى الزعيم الأوحد . والقائد الأكبر

سعد باشا زغلول

مولای

يرفع هـذا الأثر الى قيادتك ، جندى من جنودك الذين تسير بهم أعلامك فى جهادك لحق الوطن المفدى ، ويقوم به لواؤك فى مقاتلة خصوم استقلال مصر وسودانها . وعسى أن اكون قد استبسلتُ ، فيُحمد الجهاد ؛ وبلغتُ ، فأحظى بقبول . وأرجو من بعد هـذا ، أن ينصرك الله بأنصارك المجاهدين ، ويكبت خصومك بجنودك المخلصين

احمد أبو الخضر منسى

الى القارىء

لكثيراً ما يبرزون الينا بأسلحة الباطل حسبان أنهم بهذا يغلبون حقنا ، ويقتلون عزمنا . فنسكن من بعد هذا الى ذلتنا ، ونطيب نفساً بعبوديتنا . ألا ساء ما يتوهمون ! إننا من دون أمم الأرض ، أمة تضرب فى المجد بحق ، وتجرى فى المدنية العتيقة على عرق ، ولئن صمتنا نحن لأن الدهر قد غدر بنا غدرته ، نطقت آثارنا بصوت كهدير الرعد ، شدة وجلاء ، أنا شعب مُعمِّر فى المدنية ذات الآلاف من السنين، شيخ فى المعارف التى لا زالت، الى يوم يبعثون، موضع العجب من شعوب أوروبا واسعة الحضارة، والعجب بها

لكم رمونا بالجهل من يوم نهضنا لاستقلالنا ، يريدون أن نؤمن بباطل قولهم فنترك ما نهضنا له ونرضى بما رضوه لنا . وأخيراً سمعنا موظفى الانكليز فى حكومتنا ابقاء ، على ما يستمتعون به من مرتبات تُرضى كظتهم ، وتشبع نهمتهم ، وما ينعمون به من خيرات هذا الوادى الخصيب وأطايبه ، يقولون لأحرار الانكليز أيام زارونا ، واستفسروهم فى الرأى الذى يرونه لهذا البلد المطالب بحقه فى الحرية

والاستقلال : « ان الثمانين فى المائة من هذه الأمة على جهل ، يتبعون الرئيس بغير ادراك ، ولا يدرون من حكمة ما هم له ناهضون ومطالبون شيئاً » .

أغاظنا هذا الباطل منهم ، وعذب نفوسنا ، وخشينا أن يلبس هذا الباطل عند بعض النفوس لباس الحق ، ويشتبه لديها كذب أقاويلهم بالصدق ، فأحببنا أن ندحض مفترياتهم ونرد فى نحورهم كيدهم ، وأن نكشف عن حقنا ليبدو ناصعاً ، وننبه مع هذا أمتنا الى ما هم بالغوه من رقى وعرفان ، وما يجب عليهم أن يشمروا له عن ساعد الجد ليبلغوه ، حتى لا يجد الخصم الى حقهم ثغرة ينفذ منها اليهم بباطله

أردنا أن تخرج هذه الرسالة من يدنا مبحوثة ، وافية مشبعة ، وليست لمثل هـذا تتسع أنفاس الصحف اليومية السياسية ، فصح منا العزم على أن تكون فى هذا الثوب الذى كسوناها به ، عسى أن نكون قد بلغنا الغاية التى اعتزمناها ، وقمنا بنصيبنا فى الخدمة العامة ، للمصلحة العامة .

ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها   احمد أبو الخضر منسى

جنايتكم علينا وتتهمون !

يا لله لكم ! لشد ما توضعون فى الضلال والإضلال ! لهذه إحدى العجائب ! ما علمت قط أن القاتل يقتل قتيله فيمتب على أهل القتيل أنه قتله لهم ! اشهدى ياسماء على هذه المحنة ، وسجلْ لهم أيها التاريخ هذه القحة . جانون يتهمون ومذنبون يلومون ! اما لنكشفن عن مكنون علم قد اندمج عليه التاريخ الذى لا يعرف المحاباة ولا التكتم حتى لتضطربُنّ اضطراب الهشيم اذا أزراه الريح ولتنفضحن انفضاحاً يملأ نفوسكم حسرةً وغيظاً . فتعلمُنَّ أن حقنا ثابت قدسى ، وأن باطلكم زاهق شيطانى!

لقد كنا قبل أن تطأ أقدامكم ديارنا المباركة ، محتلين متدخلين حاكمين بأمركم ، كنا أمة نهاضة وثابة الى المجد ، لنا البحر نملاه سفينا ، ولنا المدارس نملأها بنات وبنين ، ولنا المصانع نصنع فيها ونبدع ، ولنا المتاجر ممتدة واسعة ، ولو تركنا وشأننا ، ولو أراد الله لنا وقاية من أذاكم لكنا ، بحق ،

قد وصلنا تاريخنا الحديث بتاريخنا القديم ما تفرق بينهما فى العظمة والمجد

ولكنكم احتللتم فأفسدتم ، وتصرفتم فأخرتم ، وملكتم فدمرتم. فاذا السفائن قد طواها العدم ، واذا المدارس أسماء لغير مسميات ، سقيمة معلولة باكية ، واذا المصانع قد تنكرت معالمها ودرست سبلها وعفت آثارها . وحسابكم من بعد هذا على الله. انه خير الحاكمين وأحسن العادلين !

واتسمعوا الآن حسابنا ، حساب الناس العاجل ، الى أن يدرككم حساب الله الآجل ، ولا يلم لائم إلا نفسه . أن المغتر بالأيام مضلول

(التعليم قبل الاحتلال)

أيها التاريخ ما أنطقك بالحق ! جاهرهم اليوم بحكمك فيهم ، وصرح لهم بما بين يديك من حقائق ، تسكت المكابر ، وتفحم المراوغ ، إنك ولىّ المستضعفين ، وشهيد المظلومين ، وكفى بالحق وليًّا ونصيراً

أراد الله أن تحمد مصر صبرها بعد حكم المماليك.

الأنانى المخرب ، وشاء الدهر أن يُعتب والحظ أن يقبل ، فحباها ربها بذلكم الرجل العظيم موقظ مصر من سباتها ومحيي الرميم من عظامها « محمد على باشا » ، فنهض بها نهضة أذهلت نفوس الأوربيين ، وأملكها عنان حكمها ، وجعلها متصرفة فى شؤونها ، مستقلة فى ما تريده لنفسها من خير وارتقاء . ولما أمن على استقلالها ، واطمأن على ما صنعته لها يداه المباركتان ، رأى أن يثبّت أساس ذلك الاستقلال ، ويضمن ارتفاع البناء شامخاً مكيناً لا يتقلقل ولا يتزعزع . فصرف همه الى تكوين جيش لمصر تعتز به وتغلب ، فأنشأ عام ١٨٢٥ مدرسة اعدادية سماها المدرسة التجهيزية الحربية فى القصر العينى يتعلم الطلبة فيها القرآن والنحو وآداب اللغة التركية والفارسية والعربيـة ، ومبادئ الحساب والهندسة والرسم واللغة الايطالية لأن جلّ معلميها كانوا ايطاليين . وكانت ملحقة بها مكتبة تحوى من نفائس الكتب خمسة عشر الف كتاب

وما قنعت همته بهذا فقط بل شاء أن يتم لمصر مجدها

بانشاء أسطول بحرى استورد أخشابه من سوريا التى ملكها وضمها لبلاده . وبناء السفن وتسييرها وقيادتها علم وفن لا بد من كسبهما فأمر بتلك الارساليات العسكرية العلمية : جماعات من شبان مصر يؤمون عواصم ايطاليا الشهيرة : ميلان ، وفلورنسا ، وروما ، ليدرسوا علم بناء السفن والحركات العسكرية . وكما أرسل الى ايطاليا فكذلك أمر بأن ترسل الارساليات الى انكلترا لدراسة الميكانيكيات

ولقد أنشأ فى الاسكندرية دار الصناعة البحرية التى أخرجت لمصر ذلكم الاسطول المصرى العظيم الذى قال عنه الدكتور بورج فى تقريره : « إنى رأيت الاسطول المصرى ورجاله فما وجدته يختلف عن أى أسطول آخر إلا فى الملبس الرسمى »

شاء أيضاً أن يخرج لهذا الجيش المنظم ضباطاً ماهرين خابرين فأنشأ فى عام ١٨٢٥ مدرسة أركان حرب فى أبى زعبل ، على نظام مدارس فرنسا

ثم أنشأ عام ١٨٢٦ مدرسة أبى زعبل الطبية ومستشفاها

يتسع لستمائة والف مريض بادارة الطبيب الشهير كاوت بك

وفى عام ١٨٣٦ وُلدت وزارة المعارف المصرية على يديه وكانت تسمى وقتئذ ديوان المعارف . فأخذت المدارس الابتدائية والثانوية ، من ثَمَّ تتكوَّن وتنمو وقد جعل التعليم فيها جميعها بلغتنا العربية الشريفة الحيَّة النامية . وليثلج صدرك أيها المصرى وتقرَّ عينكَ أن تعلم أن التعليم فى هذه المدارس كان مجانياً

نعم كانت تنفق حكومة ذلكم المصلح الكبير، نابوليون الشرق ، ومحيى مصر محمد على باشا ، على طلبة هذه المدارس جميعها البالغ عددهم ٩٠٠٠ ، تعلمهم وتطعمهم وتكسوهم وتسكنهم ترغيباً لهم ولغيرهم من أبناء مصر فى كسب العلم لأنهم كانوا يقبلون عليه ، وهم كارهون ، للذى أصابهم من أذى الحكام السابقين وما أورثوهم إياه من خمول وجمود

ولقد بلغ عدد المدارس عام ١٨٣٩ فى القاهرة ست عشرة مدرسة هذه أسماؤها : مدرسة الموسيقى العسكرية ، المدرسة

التجهيزية الحربية فى القصر العينى ، مدرسة الطب والصيدلة ، مدرسة الكيمياء العملية ، مدرسة المشاة ، مدرسة الفرسان ، مدرسة الطبجية ، مدرسة البحرية ، مدرسة طب الحيوان ، مدرسة التعدين ، مدرسة الهندسة ، مدرسة الزراعة ، مدرسة الولادة ، مدرسة الادارة الملكية والحسابات ، مدرسة الألسن والترجمة ، مدرسة الصنائع والفنون

وكان مجموع المدارس فى القطر المصرى فى عام ١٨٣٩ إحدى وخمسون مدرسة بها من التلاميذ ٩٠٠٠ وميزانية التعليم ٦٧٨٤٤ جنيهاً ؛ مع ان سكان القطر المصرى فى تلك السنة ، كان عددهم ٣٨١٨٠٠٠

(الارساليات)

ولشد ما كانت تتابع تلك البعثات العلمية ! ولكم كانت صوالة تلك الهمة التى بذلها محرر مصر فى الاكثار منها حتى كانت تعد بالمئات ، وقد بلغ عدد الذين أرسلوا الى فرنسا وايطاليا وانكلترا ليقتبسوا المعارف ويقبسوها قومهم ، ٣١٩ طالباً فى ما بين سنة ١٨١٣ الى سنة ١٨٤٩ ،

انفقت الحكومة المصرية عليهم ٢٢٤ الف جنيه

ولقد ذكرنا لك شيئاً عن تلك البعثات العلمية الحربية التى أرسلتها الحكومة الى ايطاليا وانكلترا وبلغ عدد هذه ١٨ ارسالية . ونذكر لك الآن شيئاً عن الارسالية العلمية الأولى التى تألفت بادارة المسيو جومار الفرنسى أحد علماء حملة نابوليون

سافرت هذه البعثة العلمية الى فرنسا عام ١٨٢٦ . وهى مكوّنة من أربعين شاباً من نجباء أبناء مصر . ليتعلموا ما تشتهى الأنفس الناهضة من علوم الحياة والادارة والسياسة ، فئات فئات ، كل فئة قد اختصت بمادة من العلوم . فمن ذلك : الادارة الملكية ، والادارة العسكرية ، والبحرية ، والسياسية ، ونواميس السائلات ، والكيمياء ، والطب ، والجراحة ، والتشريح ، والزراعة ، والتاريخ الطبيعى ، والمعادن ، والميكانيكيات ، والهندسة العسكرية ، والطبجية ، وصنع الأسلحة ومسابك الحديد ، والطبع ، والحفر

كذلك أنشأت حكومة محمد على الكبير فى باريس

تلك المدرسة المصرية بادارة اسطفان بك وهو أحد المتخرجين من طلبة الارسالية الأولى وذلك للوصول الى التعليم العالى وتكوين عدد كافٍ من المعلمين للمدارس المصرية . وقد أرسلت الحكومة الى تلك المدرسة المصرية الباريسية ٤٠ طالباً منهم نفر غير قليل من الأمراء المصريين

***

وواصل اسماعيل باشا الخديوى ما كان قد انقطع بعد موت جده العظيم . فكان خير حفيد لخير جد . ومن أشبه اباه فما ظلم !

يومئذٍ زهت المدارس ، وأينعت المعارف ، وكثرت البعوث العلمية وتعددت ، وأزهرت النهضة العلمية ، وراج سوق الأدب أيما رواج ، واعتزت اللغة العربية وآدابها ، وما كنت تجد أنفق بيعاً ولا أروج سلعة من صحافة مصر المتنوعة المتكاثرة : ما بين سياسية وأدبية ويومية وأسبوعية ونشرات ومجلات . ونما التعليم وانتشر ، لا لتخريج جماعات من الاداريين والموظفين ، ولكن لتزكية النفوس ، وتنوير

العقول ، وترقية اللغة ، وانهاض العلوم والفنون . ذلكم عهد اسماعيل الذى قال عن بلاده : « أنها قطعة من أوروبا »

بدئ فى عهد ذلك العاهل الكبير التى بدأت ولايته من عام ١٨٦٣ ، بتقسيم التعليم الى درجاته الثلاث : ابتدائى وثانوى وعالٍ . وتوجهت عناية حكومته الى تعميم الكتاتيب فى سائر أنحاء القطر حتى بلغ عددها بضعة آلاف . ونما عدد التلاميذ فجاوز المائة الف . وأنشئت مدارس البنات

وفى عام ١٨٦٧ ، ولوعا من الخديوى اسماعيل ذى الهمة القعساء بنشر التعليم منح نظارة المعارف منحة عظيمة ألا وهى إيرادات ١٠٠٠٠ فدان مع جفلك الوادى وهو عبارة عن ٢٢٠٠٠ فدان . وذلك لانشاء مدرسة فى كل مديرية لتعليم الاحداث الكتابة والقراءة والعلوم الابتدائية

ولقد كانت لدينا شبه جامعة فى تلك الدروس والمحاضرات العامة فى العلوم والفنون العالية التى كانت تلقى بدار العلوم بسراى درب الجماميز يؤمها الطلبة على هيئة انفتياتر ويقوم بتدريسها نفر من أفاضل العلماء بين وطنيين وأوروبيين

ولقد بلغ بنا حب العلم والهوس بنشره ان أنشأنا عام ١٨٧٠ للعميان وللخرس مدرسة كان بها ١١٤ تلميذاً

واليك احصاء مجملا عن التعليم فى مصر عام ١٨٧٥ :

بلغ عدد المدارس بالقطر المصرى للبنين ما بين عالية وثانوية وخصوصية وأوليـة وابتدائية وكتاتيب ، أميرية كانت أو أهلية أو للمرسلين المسيحيين ٤٧٧٥ مدرسة بها من التلاميذ ١٣٧٣٢٧ تلميذاً

ومدارس البنات ٤٩ مدرسة بها ٤٠٨٠ تلميذة

فتكون الجملة العمومية للبنين والبنات ٤٨٢٤ مدرسة عدد تلاميذها وتلميذاتها ١٤١٤٠٧ ؛ مع أن احصاء سكان القطر المصرى فى هذا العام كان ٥٥١٠٢٨٣

وكنا نعلم أن هـذا شىء قليل ضعيف وانه نقص فى التعليم فلما انشئ القومسيون العلمى فى مايو عام ١٨٨٠ للنظر فى ما يجب تقريره لترقية برامج التعليم ونشره قال فى تقريره الذى رفعه الى مجلس النظار ، بعد فحصه احصاء التعليم الذى ذكرناه لعام ١٨٧٥ ومقارنته بسكان القطر المصرى البالغ عددهم

كما ذكرنا ٥٥١٠٢٨٣ : ان هذا يدل على نقص كلى فى التعليم الابتدائى الحالى والتعليم بالكتاتيب ، كما يجب أيضاً تحسين وترقية برامج الدراسة للمدارس التجهيزية والخصوصية والعالية

ولما جاء عام الاحتلال المشؤوم عام ١٨٨٢ خرجنا وكنا على هذه الحال :

مدارس أميرية ومدارس أجنبية :

والمدارس الاميرية إما ابتدائيه وإما ثانوية :

فالابتدائية ٥٣٧٠ مدرسة عدد تلاميذها ١٣٧٥٥٣

والثانوية ٢٧ » » » ٤٦٦٤

هذا غير المدارس الحربية ومدرسة الفنون ، ومدرسة الطب ، ومدرسة المساحة ، ومدرسة الحقوق التى انشأها اسماعيل باشا وسميت فى ذلك العهد مدرسة الادارة ، كما أنشأ أيضاً مدرسة دار العلوم ومدرسة الصنائع والفنون فى بولاق ومدرسة المعلمين . وقد أنسانا الشيطان أن نذكر هذه المدارس الأربعة فى مواضعها هذا أيضاً غير المدارس الاجنبية

فكان مجموع من يطلبون العلم من أبنائنا لا يقل عن

مائتى الف ولنا من المدارس ما لا يقل عن ٥٤٥٠ مدرسة مع أن عدد سكان مصر فى عام ١٨٨٢ كان ٦٩٩٤٠٠٠

وأما التعليم فكان باللغة العربية فى كتب عربية : أعنى انا كنا ندرس الكيمياء والطبيعيات والتاريخ والجغرافيا وغير ذلك من العلوم فى كتب عربيـة لا فى كتب انكليزية . وكانت لغتنا العربية يتسع صدرها لجميع هذه العلوم. ويدعون اليوم أنها يضيق صدرها عنها جميعا !

وكان التلميذ مخيرا بين تعلم الفرنسية أو الالمانية أو الانكليزية. وكان التعليم المجانى منتشراً ومعروفاً فى المدارس الاميرية

هذا ما وَجَدنا عليـه الاحتلال الانكليزى . فانظر يا رعاك الله ، الى ما أصارنا اليه وما صنعه بنا فملأ نفوسنا أوجاعاً واكبادنا حسرات ، ويكتمون الحق مع هذا! وهم يعلمون !

(التعليم فى عهد الاحتلال)

يا عام ٨٢ ! يا عام الشؤم ! عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين ! ليتك ما دارت الافلاك فيك دورتها ، ولا سارت الشمس فيك مسراها ، ولا تحركت الارض فيك حركتها ، ولا جرت الأقدار فيك جريها ، فما كنت خرجت من جوف العدم ، ولا عرفك الوجود ، ولا استقبلتك الحياة .

إنك يا عام ٨٢ مفتتح النكبات ، ومستهل الكوارث ، ومصب الرزايا ، ومبعث الأذى . حمّلتنا شرّك ولا زلت تحملنا شر ما جرته خلفك من سنين ، جاوزت الاربعين سئمنا فيها الحياة ، ونجاهد مجاهدة المستميتين فى التخلص مما لحِقنا من شرّك ، وما ورثناه من أذاك !

دخلتم أيها الانجليز بلادنا ، وتلك حالنا التى وصفناها من التعليم ، غير ما بلغناه من اتساع التجارة وازدهار الصناعة ، واستقلال البلاد بجميع مرافقها ومصانعها وشؤونها ، مما لم نرد ذكره لانكم لا تعيبون علينا إلا التعليم فى كلامكم كأنما تجهلون ما كنا عليه من تقدم فيه مستمر صاعد ، وكأنما

التعليم لم يكن بأيديكم تتصرفون فيه كما تتصرفون فى جميع شؤوننا من يوم أن وطئتم بلادنا وحكمتم فينا حكم من لا يُرد له حكم ، ولا ينقض له أمر

هـذه حالنا ونحن مستقلون ، وأول ما احتللتم بلادنا عثتم فى أرضنا هدماً وافساداً ، وانصرفتم أول ما انصرفتم الى التعليم تمزقون لحمه تمزيقاً ، ووكلتم به جلاداً قسا قلبه قسوة الجلمد ، كلما اجتذ من جسم التعليم قطعة أغرته رؤيتها واجتذبه منظرها فهوى بسيفه على أخرى يجتذها ، وما يراعى صيحة ذلك الجسم المتعذب ؛ بل الانين يطربه ، والعذاب ينشطه ، ذلكم دنلوبكم أيها الموظفون الانجليز ، دنلوب الحاكم بامره فى وزارة المعارف ، وجلاّد التعليم فى مصر ، ما دالت دولته حتى تقرَّحت أجفان ، وانسقمت أبدان ، وسُلّت صدور على حال بلغها التعليم موجعة مبكية ، ونازلة نزلت باللغة العربية تُردى وتدمر

عمدتم أول ما عمدتم الى مدرسة الالسن فأغلقتموها وألقى جلاّدكم على البعوث العلمية نظرة ، فرأى أن فيها

حياة قوية نامية للتعليم وأن فيها لنهضة وثابة ، لمصر فلا تمكث أن تتبوأ بها بين متحضرة الامم الراقية مركزاً أشم عالياً .
فقال لنقضين عليها القضاء المبرم وأصبحنا اليوم وتلك الارساليات مغفلة يحدث عنها كما يُحدث عن أقاصيص الاولين

وعلم المحتلون أن المجانية فى التعليم جناحان يطير بهما طيرانا ، وان المجانية نظام ضرورى فى التعليم عند الامم المستقلة الحرة أمثال فرنسا وانجلترا والمانيا وغيرهن من عظمى الدول وصغيراتها اللواتى علمن أن الحياة الحقه لامة من الامم لاتقوم الا على دعامتين من علم ومال؛ وان المجانية، وهو الامر المزعج الخطر، تفتح الباب على مصراعيه لعامة الشعب وفقرائه ودهمائه ، فيدخلون مدينة العلم يشبعون ويرتوون ويقيمون . فاذا تعلم هؤلاء تعلم الشعب جميعه ؛ واذا تعلم ، ادرك ؛ واذا ادرك ، أراد ؛ واذا أراد تحرك ؛ واذا تحرك نهض ؛ واذا نهض فالويل لمن يقف فى وجهه ويعترض سبيله يمنعه الحياة الشريفة والعمل الحر . علموا كل ذلك فقالوا لنقضين على المجانيـة أيضاً . واعتز دنلوب

بسلطانه فانقلبنا نحن الفقراء الى المال والى العلم نطرق أبواب المدارس فلا نجدها الا موصدة فى وجوهنا فننقلب والحياة اسود فى عيوننا من تخمة، لو لا أمل يلازم الحى فى عيشه، لآثرنا الموت على الحياة

اغفلوا البعثات، والغوا التعليم المجانى، ثم التفتوا التفاتهم المعروفة الى اللغة العربيـة، فالفوها ناهضة، زاهية، تعلم العلوم بها، فهى لغة العلم ولغة التأليف، ولغة التعليم ولغة القوم. فقالوا هـذه لغة امة تعبدناها، وبلاد تملكناها فما ينبغى أن يكون لها شأن ولا ذكر. وقالوا انا نريد أن نكثر العثرات فى طريق المتعلمين من هـذا الشعب ونريد أن نسئم نفوس النشء المتعطش الى العلم، ونكلفه الأمرين فى تفهم علومه وكسبها. فأمروا أن يكون التعليم بلغة الانكليز، وان تؤلف الكتب الدراسية بلغة أبناء التيمز. واهملت لغة البلاد، لغة القرآن ولغة العلوم، ولغة البيان! حتى صارت ساعات تدريس اللغة العربية فى مدارس الحكومة أقل من ساعات التدريس لسواها!!

وقد تغلب الشعب مع هذا بعد جهاد الابطال ، جهاد الاستماتة العنيف ، على عزة دنلوب وجبروت دنلوب، وكيد المستعمرين فأرغموا الحكومة على العودة من سنوات قلائل الى تعليم العلوم باللغة العربية الكريمة

وكانت لنا مدرسة عظيمة تتعلم فيها علم البحر وقيادة السفن وصنعها وهى مدرسة البحرية فالغوها فاصبحت فى خبر كان . ولسنا نذكر الاسطول المصرى فانهم كما قلنا لا يعيبون علينا إلا الجهل ، وان الثمانين فى المائة منا لا يدركون ولا يفهمون !

ومدرسة المعادن التى أنشأناها فى مصر القديمة لنتعلم فيها طبائع المعادن ، وتركيبها وتكونها ، وأمكنة وجودها ، وأنواعها ، وكيفية استخراجها من مناجمها ، لأن بلادنا بها كثير من المعادن وقد كنا نستخرجها ولنا بها علم كثير وغنى وافر عمد اليها الاحتلال أيضاً فلاشاها . أفما يخجلون وتسود وجوههم خزيا ؟ يرموننا بالجهل . وإنه لصنع أيديهم . وإن اعظم حجتهم لعلى انفسهم . هبلتهم الهبول . كيف يأفكون !

وانظر الآن الى مبلغ ما أوصلونا اليـه من التعليم مدة أمرهم فينا ، وتبرعهم بتهذيبنا وتربيتنا التربيـة السياسية والمدنية والعلمية والاجتماعية وما الى ذلك من أنواع المقاصد النبيلة ، والمطامح الشريفة ، ابتغاء مرضـاة الله وخدمة للانسانية !

فقد بلغ عدد المدارس عام ١٩١٤ ، بالتفصيل على الوجه الآتى : —

مدارس أميرية	٦٨
« مجالس المديريات	١٣٢
« أهلية	٥٩٤
« أجنبية	٣٢٥
« كتاتيب	٧٢٤٦
جملة عامة	٨٣٦٥

مجموع عـدد المدارس فى القطر المصرى عام ١٩١٤ ماعدا المعاهد الدينية ٨٣٦٥ مدرسة بها من الطلبة ٦٠٠٠٠٠ طالب وعدد سكان القطر فى هذا العام ١٢ مليونا ولـكم

بعد هذا أيها الموظفون الانجليز، والمستعمرون الشرهون أن تقارنوا حال التعليم عام احتلالكم المنحوس حيث كان عدد المدارس عام ١٨٨٢ ، ٥٤٥٠ مدرسة وتلاميذنا نحو ٢٠٠٠٠٠ وسكاننا ٦٩٩٤٠٠٠

لقد زاد سكان القطر المصرى ٦ ملايين أى أصبحوا ضعف ما كانوا عام ١٨٨٢ بينما المدارس لم ترد إلا ٢٩١٥ وتلاميذها إلا ٤٠٠٠٠٠ وذلك فى مدة ٤٠ سنة كاملة. على أن الفضل، مع هذا، مرجعه كله الى نهضة هذا الشعب العريق فى علومه العتيق فى مدنيته، فان مدارسه التى افتتحها بلغت الستمائة مدرسة؛ بينما عدد المدارس الاميرية لم يتجاوز الثمانية والستين. ولقد بلغ عدد من هاجروا لكسب العلم ونفقاتهم على أنفسهم ٦١٤ طالباً

ولست أحسب أن هناك زيادة تذكر من عام ١٩١٤ الى عامنا الحاضر ١٩٢١، الا ما أعلمه من أن كثيرا من معاهد التعليم قد تحولت، فى سنين الحرب المشؤومة التى لم تنته الا من ثلاثة أعوام، لتجعل مستشفيات ومعسكرات للجيش

الانكليزى والسلطة العسكرية التى تصرفت فينا تصرف الحى المدرك بالجماد. وما كنا وحق الكرامة بجمادات. بل أنا من الناس بذكاء وافر، وأخلاق كريمة، ومجد تليد، وعظمة دهرية! أما اذا كانت هناك زيادة فى المدارس وفى الطلبة فما تكون إلا من جانب الشعب الذى تتقد بين أضلعه نار هوى المجد وحب الرقى والتحرر. فانك اذا راجعت احصاء سنة ١٩١٤ عن عدد المدارس ألفيت أن عدد المدارس الاميرية ٦٨ ومدارس مجالس المديريات ١٣٢؛ بينما عدد المدارس الاهلية التى تكونت بسعى الشعب ومال الشعب ٥٩٤ مدرسة اعنى ثلاثة أضعاف ما للحكومة ومجالس مديرياتها من المدارس

هذا ولا تنسوا يا حضرات الموظفين الانكليز أن عدد سكان مصر اليوم ١٤ مليونا فكأن الزيادة التى زدناها فى عدد مدارسنا وتلاميذنا لا تعد زيادة ولا تعتبر تقدماً اذا قيست بعدد سكان القطر عام ١٩٢١ وعددهم عام ١٨٨٢.

ولكم كانت لدينا قبل احتلالكم المقيت من المدارس العالية والخصوصية مثل مدرسة المعادن. ومدرسة البحرية

ومدرسة الألسن والترجمة . وأما اليوم فقد أهملت الحكومة — وما الحكومة المصرية إلا أنتم كما تفهمون ونفهم — انشاء المدارس العالية واكثرت من انشاء الكتاتيب التي تضحكون بها على عقولنا ولكننا لا يُضحك علينا . فانا عالمون بكيدكم . وأنا لكم لبالمرصاد حتى يقضى الله أمراً كان مفعولا

وأنت يا سيدى القارئ اذا قارنت بين علوم البكالوريا المصرية وعلوم البكالوريا فى البلاد الأوروبية الراقية ألفيت البكلوريا المصرية بالنسبة الى البكلوريا الفرنسوية مثلا كنسبة الشهادة الابتدائية المصرية ، الى الشهادة الثانوية المصرية . نقص فاحش عندنا فى برامج التعليم وعيب واضح لا تخرج إلا أدمغة ناقصة لملء وزارات الحكومة ، وأنفساً غير جليدة على جهاد الحياة . وأشد جنايتهم فى وضع برامج التعليم الابتدائى والثانوى ، جهدهم الذى يبذلونه فى تقوية الذاكرة من دون قوى الدماغ عند الطالب المصرى ، يحشونها حشواً ، بالنافع القليل والفاسد الكثير ، ويُسقمون

بل يقتلون أسمى قواه العقلية وأفضلها أعنى القوة المفكرة عنده. فيخرج التلميذ المصرى من بين أيديهم فقيهاً بعلم ألفاظ لا طائل تحتها ، واذا طلبت اليه أن يحل أهون معضلة من معضلات الحياة حَرِج وتململ . ولبئس علم لا يعد صاحبه لجهاد الحياة وحل معضلاتها وتذليل صعابها !

واذا أردت أن يتضح لك جلياً رداءة النُظُم التعليمية ، فى مدارسنا الحكومية ومعها الأهلية التى تضطر الى السير وفق برامجها ، فقارن تلك البرامج والنُظُم بالتى عند المدارس الأجنبية الحرة : خذ تلميذين قد تخرَّج الواحد من مدرسة مصرية والآخر من مدرسة الفرير أو الجزويت مثلا ، يتضح لك الفرق العظيم بين الاثنين فى النظر الى الحياة والسلوك للعيش . فان متخرج الفرير أو اليسوعيين الذى اتسعت برامج التعليم امامه وتحررت من كل قيد حكومى ، أبرع من أخيه متخرج المدارس المصرية ، واكثر منه حيلة وأوسع منه علماً . ومع هذا لا يستحى حضرات موظفينا الانجليز ولا يردعهم من ضمائرهم رادع عن اتهامنا بالجهل .

ورمينا بعدم الفهم . ولكن حسبهم فقد رجع الحق الى نصابه ، وما هم بصانعين شيئاً اليوم . فليستجلبوا جلبهم وليحشدوا جيوش أباطيلهم فانا قد أخذنا لحربهم الأهبة ، وأعددنا لها العدة . وانا لغالبون باذن الله ومنتصرون

أو تجهلون يا رجال الاستعمار أن المخصص لوزارة التعليم المصرية ٨٧٠٤٢١ جنيهاً لعام ١٩٢٠ — ١٩٢١ من مجموع الميزانية العامة الذى لا يقل عن ٤٠ مليوناً من الجنيهات فيكون ما تنفقه على التلميذ الواحد نحو ٤٠ قرشاً صاغاً بينما دول أوروبا تنفق عُشْر ايراداتها لنشر العلم والتعليم ونحن ننفق على التعليم بنسبة لا يليق ذكرها ويخجل بيانها. لقد علمتم الآن كيف كنا قبل احتلالكم من العلم وما الذى صرنا اليه بعد احتلالكم . وما نشك بعد الآن فى أنكم معترفون معنا بأنكم جناة علينا فى هذا التأخر العلمى . وأن الجناة لا يتهمون ولا يلومون. ولنا معكم بعد هذا قول آخر وحجة أخرى على لون جديد من الكلام . وهذا أوانه . فاسمعوه، إن كنتم تعقلون !

ولئن كان ذلك فماذا ؟

هذا مقال قدمناه لكم فى الفصل الاول من هـذه الرسالة ، ما يأتيه الباطل من أية ناحية من نواحيه . كله حق قوى ، وصدق أثبت من جبل راسخ ، وحجج مهما أراد الاعمى أن يعمى فما يستطيع ولا يقوى . خرج لكم منه انا كنا ناهضين فى العلوم، كلنا بالتعليم كلفون مشتغلون . لو تُركنا الى هذا اليوم أحراراً ، لكنا لا نقل فى حضارتنا وعلومنا عنكم شيئاً ، إن لم نكن أعلى كعباً ، وأبعد شأواً . وأنتم تعلمون كم أخرجت مدارسنا الأولى وبعوثنا فى عهدى محمد على واسماعيل من عبقريين ونوابغ فى الطب ، والهندسة ، والفلك ، والعلوم الطبيعية والكيمائية ، والشعر والادب ، وغير ذلك من العلوم والفنون أمثال محمد على باشا البقلى رئيس المدرسة الطبية المصرية وكبير جراحيها . ورفاعه بك رافع الطهطاوى ، والسيد صالح مجدى بك ، ومحمود باشا الفلكى الرياضى الشهير ، وشفيق بك منصور الرياضى القانونى

المشهور، ومحمد مختار باشا الرياضي الفلكي، والدكتور درى باشا وغيرهم كثير تقرأ أسماءهم وما ثرهم في كتب التاريخ والادب مثل كتاب التعليم لامين باشا سامى الذى استقينا منه اكثر ما ورد في رسالتنا هذه من الاستشهادات والاحصاءات القيمة الصحيحة، وتاريخ آداب اللغة العربية لجرجى بك زيدان، وتراجم مشاهير الشرق له ايضاً. وانكم أنتم، أنتم الذين قصصتم أجنحتنا، وأخمدتم نارنا، وضربتم دون ارادتنا ونهضتنا الاسداد. هذا ثبت واتضح، وانتهينا منه بحمد الله

ولكنا أحببنا أن نتمشى معكم في هذا الفصل الثانى من رسالتنا، ونجاريكم في منهاج باطلكم. ولا نرجع عليكم اللوم، ولا نلصق بكم الجناية والذنب. ونفترض أن هذا مبلغ جهدنا من عهد نهضتنا في حكومة محرر مصر محمد على باشا الى اليوم؛ وان هذا هو الواقع الذى لم تريدوه أنتم ولا نحن. وأن كل الذى يقال في أمرنا أن عشرين في المائة يعلمون، وأن الثمانين في المائة يجهلون. لئن كان ذلك فماذا؟

تزعمون أن أمة فيها ثمانون فى المائة أميون جهلاء والعشرون الباقية قارئون علماء ، يجب أن تكون لكم مستعبدة وفى أصفادها مسلسلة . وانها ليست للاستقلال أهلا ولا زال عليها بعيداً طلابه . هذا زعم أنتم فيه على ضلال كبير . ولندل اليكم بحججنا ونحن ما نعلم أن منها ما هو ضعيف ولا لين . فاذا أنتم على غير شئ . واذا الحق جميعه بجانبنا . فاسمعوا :

خلق الانسان حراً مستقلاذلك طبعه وتلك فطرته : هذه بديهية من البديهيات وقضية من القضايا المسلّم بها ، فما بنا من حاجة الى التدليل على صحتها وقيمتها . فاذا كان هذا قد تقرر وكلانا به مسلم مقتنع . واذا كان الانسان يتألف منه شعب من الشعوب فان هذا الشعب يكون ، بالنتيجة ، مخلوقاً حراً مستقلا . مقرر اذاً أن أى شعب من الشعوب ، الاستقلال حق له طبيعى ، والحرية هبة له فطرية لا ينازعه فيها منازع ؛ وليس من حق أى شعب آخر أن يتعدى عليه بسلب حريته وانتهاب حقه فى الاستقلال . وإلا كان هذا التمدى

أولا تعدياً على حق طبيعى مقدس ، وثانيا تعريض هذا الشعب المعتدى نفسه ، لتعدى شعب آخر يكون أقوى منه ، على حقه فى هذا الاستقلال وهذه الحرية . وفى هذا تقويض لنظام المجتمع الانسانى ، واحلال الفوضى بين الامم محل الائتلاف والانتظام

أما اذا كنتم ترون هذه الحجة ضعيفة لانكم لا تعملون إلا بسنة تنازع البقاء فى الطبيعة ، وتغلب القوى بقوته على حق الضعيف فانا نقول لكم انا معكم وانا لمذهبكم لمتبعون وانا به لعاملون . فما يصح بعد هذا ولا يحل أن نحرم من حق الاستمتاع فى الحياة المستقلة الحرة . ولا يجوز لنا أن نخضع ونحن العشرين فى المائة ، أقوياء بعلمنا وخبرتنا وعقولنا ، للثمانين فى المائة وهم الضعفاء بجهلهم وخرقهم وحلومهم . ولقد علمتم وعلمنا أن الامم أبعدها شأواً فى المدنية ، إنما يُسيّر أمورها ويدبر شؤونها جماعة مختارة محنكة من أبنائها يعدون بالمئات من بين مجموع عظيم لا يحصى إلا بعشرات الملايين . فالاستقلال اذاً من حقنا . وإن شعباً من

من الشعوب فيه من العقول المدركة المفكرة عشرون فى المائة ، أعنى ما يقرب من الثلاثة ملايين فان الاستقلال من ألزم لوازمه والحرية من أوجب حاجاته : هذا حكم ناموسكم الذى اتبعناه معكم وعملنا به فما أنتم قائلون ؟

ستقولون : متعلمونا أكثر من متعلميكم كثرة كبيرة وجاهلونا أقل من جاهليكم قلة عظيمة لهذا نحن مستقلون ونستحق الاستقلال ولهذا أنتم تُملك عليكم أوطانكم ولا تستحقون الاستقلال

واعجباً ! هذا أوان الضحك ! إن من القول ما يضحك حتى الثكالى . متى تقيدت أمة من الامم تبغى استقلالا وحرية ، بعدد من يجهل منها ومن يعلم ؟ هـذا هو التاريخ امامكم وامامنا . إنا عائدون اليه . فانه الحكم ألترضى حكومته. لنفتح صفحاته فى تاريخ أية أمة تريدون لنرى ما اذا كان نهوضها قد سبقه علم كثير ورقى عظيم . لنراجع تاريخ فرنسا وانجلترا وايطاليا وغيرهن من الدول الاوروبية أو الاميركية أيام نهضنَ لاستقلالهن وحريتهن ولننظر فى

حالتهن وحالة التعليم عندهن خاصة فانا نجد ما يرغمكم على الاعتراف بانهن كنّ فى أسوأ حال من الفقر والجهل والفساد. وانهن ما نهضنَ نهضتهن إلا لاصلاح ما فسد من أمورهن. وأن هذا النهوض الذى أدى الى استقلالهن ، وهذا الاستقلال الذى بلغنه لهو الباعث الأوحد لامتداد صيتهن فى العلم والمدنية والمجد الاثيل : امة مستقلة أمة عظيمة ؛ امة مستعبدة أمة حقيرة : هذا ناموس اجتماعى لا يجهله إلا مجنون ولا ينكره إلا أعمى . فمن أيهما أنتم ؟

كنا نود أن نكون أكثر استفاضة فى بحثنا. وان نأتيكم بتاريخ مفصل لفرنسا ولانجلترا ولايطاليا وللولايات المتحدة ولبلغاريا والصرب واليونان وغيرهن من الامم التى كانت مستعبدة فتحررت ، ومسيرة فاستقلت . ولكن الذى بيدنا رسالة لا كتاب والرسالة تحب الافادة مع الايجاز . على أن هذا هو الذى أردناه أول ما فكرنا فى هذا التأليف . أردنا أن نجمع المفيد والمقنع فى أقل ما يستطاع من الوقت وفى

أقل ما يمكن من الورق. لتعجيل الفائدة وايقاعها فى ما يناسبها من الحوادث والظروف. ولكنا ومن أجل ما ذكرنا، نورد لكم ما نعلم وما قرأنا من تاريخ فرنسا أيام هبت لحريتها فى ثورتها الاولى عام ١٧٨٩. ما كانت عليه من تقهقر وانحطاط وجهل فاش، وفوضى اجتماعية وفساد أخلاق. نستشهد بتاريخها لأنه كان مثالا للامم فى التحرر والاستقلال. مثالا فى غرابته وشدته ونبالته وعناده وتصميمه؛ كما انها اليوم مثال فى الرق والمدنية والعظمة، حتى بعد هذه الحرب الضروس العظمى التى خرجت منها منهوكة القوى، مبلبلة الحواس.

لم تكن حكومة فرنسا قبل عام الثورة الفرنسية، أو ثورة الحرية للجمهورية الاولى عام ١٧٨٩، لم تكن تهتم بالتعليم. بل كانت لتراه شيئا غير ذى نفع. وأنه خطر وخيم العواقب اذ يتعلم الشعب فيستيقظ فما يبقى فى أيدى ملوكه المستبدين الظالمين من سلطان عليه ولا نفوذ

واليك شذرة ننقلها اليك بحرفيتها من معجم لاروس الفرنسوى العام. لتستوضح حالة ذلك الشعب الشقى الذى

نهض لحريته نهضة ادهشت العالمين فاسمع :

« وتلك السياسة. سياسة الموازنة (يعنى لاروس بذلك سياسة ملوك فرنسا) كانت مأثورة فى تاريخ الملكية التى اغضت البصر، بزراية واحتقار، عن ممثلى الشعب فى البرلمان الفرنسى بسماحها لهم أن يظهروا ويرتفعوا بغية أن تدخرهم لوقت الحاجة، وتتخذ منهم آلات حرب وسندا فى مغالبة ممثلى طبقة الاشراف وطبقة الكهنوت. على أن فى الجهل المخيم على أفراد الشعب. ومطلق خضوعهم واستعبادهم للطبقات الممتازة والسلطات الكبرى فى المجتمع الفرنسوى وطاعتهم العتيقة الاثرية. كان فى ذلك جميعه ما يظهر أنه ضمانة كافية ».

جهل مخيم ضارب بجرانه، فاش فى جميع أفراد الشعب فشوا مفزعا يقول فيه أيضا الكاتب ذو الصيت الواسع والفلسفة الذائعة جول سيمون الفرنسوى فى وصفه حالة الشعب قبل الثورة : « لقد كان الجهل بهذا المقدار من

الانتشار حتى أنه ليعد من الشاذ الغريب أن تصادف عاملا أو فلاحا بل جنديا يكتب ويقرأ ».

شيء كثير ومزعج ! ومع ذلك فما تقولون أيها الموظفون الانكليز فى هذا الشعب الذى ثار لحريته ولاستقلاله . أنه لاشك غير مستحق لهذه الحرية وهذا الاستقلال ولكنه وانفكم راغم قد تحرر واستقال واعطى لمثلنا ، مثالا طيبا فى عدم الاعتداد بالجهل فى السعى الى الاستقلال وتحقيقه

وفى عشية الثورة كانت الحال ملخصة فى هذا : ضرورة قاهرة الى اصلاحات واسعة وخطيرة

وكانت فرنسا فى تلك الحقبة متأثرة منهوكة بتلك الاضطرابات الموجعة التى وقعت فى أواخر عهد الملكية والارتباكات الماليـة ، والقلاقل ، والمجاعات ، ومنازعات الامتيازات . وغير ذلك من العلامات الواضحة فى دلالتها على أن مجتمعا من مجتمعات البشر هو فى تدهور وانحلال مريع ولقد كان على الثورة أن تبذل لمسألة التعليم الجديرة بعنايتها جانبا خطيرا من الاهتمام . وبرز دستور ١٧٩٠ الى

الوجود حاملا بين نصوصه نظاما للتعليم ذا شأن ، وكان أهم ما اشتمل عليه ذلك الدستور ، ولاول مرة فى تاريخ فرنسا واقترح المسيو تاليران رئيس الجمعية الوطنية فى تقرير له عرض على هذه الجمعية ، انشاء مدرسة أولية فى كل مقاطعة من مقاطعات فرنسا ولكن الحوادث لم تسمح بتنفيذه

ولقد اريد فى عهد الامبراطور نابليون الرجوع الى مشروع الجمعية العمومية المذكور ولكن هذا لم يقع أيضا وكيف يكون ذلك ولنابليون شواغله ومطامعه وفتوحاته؟ ثم أين المعلمون ؟ لقد أصبح رجال فرنسا جميعهم جنودا وجميعهم يقاتلون !

ولا ينبغى أن ننسى ذلك القرار الذى أصدرته الجمهورية الفرنسية عام ١٧٩٣ القاضى باجبارية التعليم الاولى ومجانيته وقد نص فيه على احالة المخالفين لهذا القانون على محكمة تأديبه يحكم عليهم ان لم يتضح أن لهم فى المخالفة عذراً مقبولا بغرامة تكون بمقدار ربع ما عليهم من الضرائب اما اذا تكررت منهم المخالفة فأن الغرامة تضاعف مع حرمان

المخالف من حقوقه الوطنية مدة عشر سنوات وأشد صرامة من هـذا القانون قانون ١٧٩٤ . بيد ان الاضطرابات والانقلابات المشؤومة ، مع ما اجتمع الى ذلك من خفة المزاج الفرنسى الذى ينفر من كل اصلاح جديد وما غلب من عادة استخدام الاولاد فى الزراعة كل ذلك حال دون تنفيذ القوانين واعقب ذلك كما ذكرنا حروب نابليون التى انهكت قوى فرنسا واسقمتها حينا من الدهر غير قليل

وكانت فرنسا فى عهد حكومة الديركتوار عام ١٧٩٥ وما بعدها مصابة بانحطاط الاخلاق ، ومقابح العادات حتى لكان يخشى من هـذا على الجمهورية أن تبيد . وهى مع هذا فى أزمة مالية كبيرة ، وثورات ملكية مزعجة ، وهزائم فى حروبها مع الدول المناوئة لها : حال ليس اسوأ منها حال . نحن بحمد الله ما بلغنا جزءاً من مائة منها

وما زالت تلك حالها والتعليم واقف حيث هو الى أن جاء عام ١٨٣٣ . وحينئذ فقط تمكنت الأمة الفرنسية العظيمة من تحقيق مشروع جمعيتها الوطنية . وذلك على يد

وزير معارفها المسيو جيزو . ويومئذ فقط تعلم الشعب واهتم الجميع بالتعليم وشؤونه . على أن فرنسا كانت من عام ثورتها الى عام ١٨٣٣ فى حقبة ذرّفت على الأربعين سنة وهى الحقبة التى لم تستطع فيها أن تحقق أمنيتها من نشر المعارف وتعميم التعليم كانت مع هذا دولة عظيمة حرة مستقلة ، لا ينازعها فى شؤونها منازع ولا يحتج عليها بكثرة جهالها للتدخل فى شؤونها والتحكم فيها ، أحد من الناس ولا دولة من الدول ولا أمة من الأمم .

وكل ما بلغته فرنسا من التعليم عام ١٨٣٣ حين الشروع فى تنفيذ مشروع التعليم الذى وضعته جمعيتها الوطنية كان ٢٧٣٦٥ مدرسة للحكومة وللأفراد فيها من التلاميذ ٩٦٩٣٤٩ تلميذاً بينما سكانها لا يقلون فى ذلك العهد عن ٣٧ مليوناً فاذا أنت قارنت عدد تلاميذنا اليوم الذين لا يقل عددهم عن السبعمائة الف تلميذ فى أمة عدد سكانها ١٤ مليوناً بعدد تلاميذ فرنسا عام ١٨٣٣ وهم كما ذكرنا ٩٦٩٣٤٩ تلميذاً فى أمة عدد سكانها ٣٧ مليوناً اتضح لك الفرق الكبير واستبان لك من

غير جدال ولا مكابرة انا اليوم أرقى من فرنسا عام ١٨٣٣ .
وهذه الصورة العددية النسبية للتعليم فى البلدين :

فرنسا	مصر
٩٠٠ ٠٠٠ / ٣٧	٧٠٠ ٠٠٠ / ١٤

فاذا كان هذا حال فرنسا منذ اربع واربعين سنة من تاريخ حريتها واستقلالها فكم يكون منحطاً وسيئاً حالها فى اول الثورة ! واذا كنا ارقى منهـا فى عام ١٨٣٣ . فن الاولى أن نكون ، ونحن فى بزوغ نهضتنا الى استقلالنا وحريتنا ، ارقى بكثير من فرنسا اول ما تحررت واستقلت ولقد كان حسبنا أن نقتصر فى التدليل على انحطاط فرنسا فى ذلك العهـد ، انحطاطا شاملا جامعا ، بما استشهدنا به من قول الفيلسوف جول سيمون السابق ولـكننا احببنا ان ندعم هـذا القول الحق بمـا يزيده بياناً وجلاء حتى يتخذل قوم ظنوا انهم منصورون علينا بباطلهم

ونحسب ان هـذه المقارنة التفصيلية بيننا وبين فرنسا وهى احدى كبريات الدول وعظماهن ، فيه الغناء والـكفاية

حتى لا نحوج الى مقارنة تفصيلية أخرى بيننا وبين دولة غيرها، بيد انا نقول لكم أنتم أيها الموظفون الانجليز الشامخون علينا بأنوفكم ان بلادكم انجلترا وهى العريقة فى استقلالها وحريتها، انجلترا التى بدأت ثورتها الاولى ضد ملوكها وحكامها والاستبداد من عام ١٦٤٨ ، أى من نحو ثلاثمائة عام. انجلترا هذه بلادكم وموطنكم كان ثلث رجالها ونصف نسائها الذين كانوا يتقدمون عام ١٨٤٤ لعقد زواجهم يجهلون الكتابة والقراءة ولا يعرفون أن يوقعوا أسماءهم !!

ذلك تاريخ قريب وقريب جداً لا يتجاوز ٧٧ عاما كان ما يقرب من ١٤ مليونا جهلاء أميين فى مجموع شعب مستقل راقٍ عظيم السلطان ممتد الارجاء تبوأ المكان الاول بين الدول الاوروبية العظيمة، لا يقل عدد سكانه عن الاربع والثلاثين مليونا، أعنى أربعون فى المائة من سكان انجلترا جهلاء لا يفهمون ! فما أنتم بعد هذا قائلون ؟

بل ما تراكم قائلين أيضاً حين تعلمون، إن كنتم تجهلون

أو تجاهلون، ان الاجبارية فى التعليم لم تتقرر فى بلادكم إلا من خمسين سنة فقط أعنى عام ١٨٧٠ بينما كنا نحن السابقين لكم فى تقريرها فى مدارسنا وكنا معلميكم فى هذا الصنف الراقى من التعليم

يطول بنا الحديث ويمتد معنا نفس القول لو انا ذكرنا كم بالحالة العامة المنحطة السيئة، وخاصة حالة التعليم لدى بلغاريا ورومانيا والصرب واليونان أيام استقلوا وتحرروا، بل وفى أيامهن الحاضرة. ولكنا نرى من الزائد الممل والحشو الكثير أن نكون قد استشهدنا بدولتين كبيرتين مثل فرنسا وانجلترا فنحفل بعدهما بما لا شأن لهن يذكر بين دول أوربا العظمى ذوات الحول والطول والجبروت

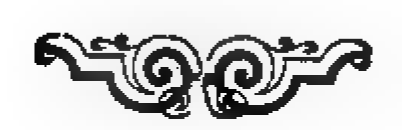
هنا انتهينا من الحجج التاريخيـة والبراهين العقلية. وكلاهما يأخذ بالاعناق راضية او مكرهة الى التصديق والخضوع الى الحق. وهنا قد بلغنا الى حد الفصل بين الجد والهزل. ههنا مراح ومغدى اللاعبين والمخرقين والمازحين ورجال التمثيل المضحك، الذى سخيفه بيّن وهتره واضح،

ما تلاقى فيه حثالة من جد، ولا نفاية من جيد. ههنا والله موضع السقط من القول، وموطن الخائب من الكلام ومقام الفارغ من الحديث، ومضمار التعلة بالاضاليل. لأننا كنا جارينا كم فى مجال الجد، اذ احتججتم بكثرة الجاهلين فينا، فاستحققتم أن نرد عليكم باليقين وبالحق المسكت ولكننا نسألكم الآن قائلين: والحجاز؟؟!!

نعم! والحجاز أيها السادة الماجنون العابثون، غواة الاضاليل، وعشاق الاباطيل، كم عدد المتعلمين فيه وكم عدد الجهلاء؟؟

لو أن الحجاز بلد مجهول، ولو أنه ليس من الشيء المعروف المبتذل ولولا أنه قد ذاع صيته فى الخافقين بالانحطاط والجدب، والفاقة، والمهانة، والعنجهية والخشونة التى تدنو من الهمجية، ولا تبعد كثيراً عن الوحشية، والجهالة والضلالة والوعورة والوعوثة، والقحولة والجفاف، وحقارة الدار وندورة السكان، لولا هذا الذى عرف عن الحجاز معرفة لا تغيب عن علم أطفالنا وأطفالكم، لأدلينا بالبيان المفصل

وجئنا بالاحصاء المطول عن حالة التعليم فى هذه الصحارى والبوادى التى فصلتموها من جسم الدولة العلية لتجعلوها دولة! نعم دولة ! ودولة مستقلة حرة ! ومصر . مصر الجميلة الفتية الفتانة المجيدة التى تأنف أن تكون الحجاز لها ضاحية مهملة من ضواحيها ، أو قرية حقيرة من قراها . مصر هـذه التى هى عاصمة الشرق وعروس بلاده ، مصر ذات المجد الاثيل ، والتاريخ المشهور ، والعظمة الشامخة الازلية ، تجادلونها فى استقلالها وتقاتلونها على الحياة الكريمة وتضربون الاسداد دون حريتها أفما ترونكم انكم هازلون اكثر مما أنتم مبطلون ؟ وكيف يسمع القول من هازل ويؤخذ الحق من ماجن. ذلك سخف نحن منه برئيون وحمق نحن عنه منزهون!



الخـــاتمة

لقد نقبنا الباطل حتى خرج الحق من جنبـه . اليوم يصمتون مقموعين . واليوم يغمدون سيف باطلهم . انا سقنا اليهم فى رسالتنا والى الناس اجمعين ما هو مسجل فى بطون تاريخنا ، وعلموا كيف انا لا نُعـيّر بحاضر هو صنع أيديهم الاثيمة وانا لو شئنا نجرى مع مطالب الحق ورغبة الـكرامة الوطنية جئناهم بكل ما يخجل النفس الحساسة غير الكثيفة ولا الغليظة وما يعذب الضمير الحى غير المقتول، مما جنت أيديهم على مصر ذات العظمة والمجد والجمال، لا فى التعليم فقط ولكن فى صناعتنا وفى تجارتنا وفى ماليتنا وفى أخلاقنا وفى كل ماتقوم به أمة تقول انها ذات تاريخ كبير يمتد الى آلاف من السنين، ذل الدهر لآثارها ووقف منها موقف السادم الحيران .

ولـكنهم كما قلنا ، جعلوا التعليم عندنا دون غيره هدفاً لهم . فأردنا الذى أرادوه . وما أرادوا لأنفسهم إلا الخيبة ، وإلا الخزى قاتلهم الله !

والآن يستنتجون برغمهم معنا هذه النتائج : زبدة ما بحثناه فى هذه الرسالة :

أولا : — انا كنا سائرين سيرا حثيثا الى اوسع حدود التعليم وأبعد مجالات التهذيب قد أنشأنا المدارس لكل مذهب ، ولكل فن ، ولكل علم ، ولكل سياسة : يخرج منها للبلاد أعاظم الرجال واماجدهم

ثانياً : — ان الاحتلال أوقف هذا السير واعطل هذه الحركة المباركة ، وانه ما قدمنا خطوة واحدة بل أخرنا لو ننظر الى التفاصيل : اعنى أنه اكثر من الكتاتيب يضحك بها على عقولنا ويبهرنا ، واضعف وقلل من التعليم العالى والثانوى ، ودمر ما كان لدينا من كثير المدارس الخصوصية مثل مدرسة الحفر والطبع والمعادن الى آخر ما هنالك من المدارس التى عددناها فى الفصل الاول من رسالتنا . وأوجد العثرات فى سبيل التعليم الثانوى خصوصاً ، بزيادة المصاريف . والتعليم الابتدائى

بابطال المجانية والاجبارية

ثالثاً : — انا أرقى بكثير من فرنسا وانجلترا وغيرهما من دول أوربا العظمى أول ما نهضن لحريتهن واستقلالهن، ليس فى العلم فقط بل من كل وجهة وفى كل حالة

رابعاً : — أن هناك أمما حقيرة أهون حالا وشأناً من قلامة الظفر . ساد فيها الجهل وأمر فيها الانحطاط هى مستقلة اليوم . وقد طابت نفوسهم لاستقلالها وما عارضوا ولا اتهموا

خامساً : — ان الاستقلال من ألزم ما يلزم للانسان الحى المدرك . وليس لمخلوق مهما يكن شأنه . أن ينازع الناس فى حريتهم واستقلالهم الذى هو من طبيعة أجسامهم و نفوسهم

سادساً : — ان الامم ليست تستقل بعقولها وفلسفتها . ولكن باخلاقها واراداتها : الاخلاق معيار الرقى والهبوط للأمم. فما الشعب بحاجة الى أن يكون

عالماً بالقانون عارفاً لسير الاولين و الآخرين
ولا أن يكون ملماً بأسرار الطبيعة وعلوم
الكائنات . بل حسبه أن يدرك أنه انسان مدرك
حر . وان تصدق ارادته للحياة الكريمة ؛ حتى
يكون مستقلا لا ينازعه فى استقلاله منازع

وبعد فليعلم الناس جميعاً، ومن بينهم حضرات الموظفين الانجليز، والذين صرعهم عشق الاستعمار من الانجليز، أن الشعب المصرى فى فهم الاستقلال واستطابة مذاقه، كله علماء وكله مفكرون ، وكله سعد زغلول ، وكله مائة فى المائة يعلمون ويدركون ، لا عشرون فى المائة كما تقولون. هذه طاخية عمياء نحن لا نماشيكم فيها. أحجى بكم تنتهون! ان مصر التى لشد ما تشطرتم ضروعها. قد آن لها أن ينقطع لبنها. فما هى لكم اليوم بدرور . ان أرض الله واسعة فابتغوا فيها ما أحببتم من رزق ومكسب (وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا)